عادل زعيتر: مترجم ذو رسالة

وديع فلسطين

كان عادل زعيتر مترجماً – وصفه محمد عبد الغني حسن بحق بأنه «شيخُ المترجمين العرب وإمامُهم في عصرنا الحديث» – ولكنّه لم يكن مجرَّد مترجم، بل سلك في أداءِ عمله مسلك أصحاب الرسالات. ذلك لأنه لم يترجم اعتباطاً أيَّ كتاب، ولا راعى اعتباراتِ السوق عند اختياره لأي كتاب يترجمُهُ، ولا صاغَ ترجمته في أي أسلوب دارج، ولا جاءهُ توجيهٌ من أي هيئة، وإنّما جعل من نفسه مؤسسةً قائمة بذاتها، فهو هو الذي ينتقي الكتب، وهو هو الذي يحملُ عبءَ الترجمة، وهو هو الذي يرسُمُ لنفسه المنهاجَ الذي يتّبعه في الترجمة، فلا يستهولُ المهمّة حتّى وإنْ وقع الكتابُ في مئاتٍ من الصفحات، ولا تخور عزائمه حتّى ولو واجهته صعابٌ مُقعدة. فهو صاحبُ رسالة، يقدّم للقارئ أنفع الكتب وأحسنها – حسب تقديره– تثقيفاً لذهنه وارتفاعاً بوعيه الحضاري، وتعريفاً له بكنوزٍ من كتب الحضارات والسير والمذاهب الفلسفية والفكرية هي عنه بعيدةُ المنال. وهو في كلِّ هذا يتوسّلُ بأسلوبٍ من أنصع الأساليب العربية وأمتَنِها، ولو اقتضاه الأمرُ استخدام ألفاظٍ وعباراتٍ يراها البعضُ غير مأنوسةٍ في سوق التداول اليومي. ومَنْ كانت قامَتُهُ على هذا القدر من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الارتفاع، فلابدّ أن يُحسنَ الظّن بقارئه ويسمو به إلى مستواه وينأى بنفسه وبقارئه عن مستويات العوامّ. ولهذا وصفتُ عادل زعيتر بأنه كان «جامعةً ومجمعاً». فعنه تؤخذُ المعارفُ، وبه تؤصَّلُ اللغة وتؤثَّل.

وإن نظرةً عجلى إلى قوائم الكتب التي ترجمها عادل زعيتر تهول المرء بسبب ضخامةِ عددِها، وغزارةِ مادتِها وتنوّعِ موضوعاتِها وشُهرةِ مؤلّفيها وتناولها لمباحثَ في التاريخ والجغرافيا والتراث والسياسة والاجتماع والفلسفة وعلم النفس والتربية. وكلُّ فرعٍ من هذه الفروع يحتاج إلى تخصّصٍ أكاديميّ. ومع ذلك استطاع عادل زعيتر أن يجعل من نفسه– بعصاميته الثقافية الفذّة– هذا المتخصص الأكاديميَّ في جميع هذه الفروع. كما أن إعجابه بعددٍ من أساطين المؤلفين الفرنسيين مثل: غوستاف لوبون، وجان جاك روسو، وأناتول فرانس، ومونتسكيو، وإرنست رينان، ومن الألمانيين مثل إميل لودفيغ، ألهمه نقل كثير من آثارهم إلى العربية إلى جانب غيرهم من كبار مفكري الغرب. حتّى لقد قرَّر عادل زعيتر أن انصرافه إلى ترجمة كثير من كتب لوبون «قد أدخل كتبه المهمّة الآخذُ بعضُها برقاب بعض إلى العربية إدخالاً يُخيَّلُ إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب فلوبون واضع سفر (حضارة العرب)».

ويمكن تصنيفُ الكتب التي ترجمها عادل زعيتر إلى أربعة أبواب. فهناك التراجم، ومنها «حياة محمد» لإميل درمنغم، و«كليوباترة» و«بسمارك» و«نابليون» لإميل لودفيغ، و«ابن رشد والرُّشدية» و«ابن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإنسان» لإرنست رينان، و«الغزالي» و«ابن سينا» و«مفكرو الإسلام» وهو مازال مخطوطاً في جزءين للبارون كارادوفو، و«ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية» لبوتول، و«تلماك» لفنلون. وهناك الكتب التي تتناول الحضاراتِ والتاريخَ ومنها «حضارةُ العرب» و«حضاراتُ الهند» و«اليهودُ في تاريخ الحضارات» لغوستاف لوبون، و«النيلُ» و«البحرُ المتوسط» لإميل لودفيغ، و«تاريخ العرب العام» لسيديو، و«مجالي الإسلام» لحيدر يامّات. وهناك الكتب التي تتناول الشرائع والمذاهب السياسية والاجتماعية والعقائدية، ومنها «روح الشرائع» لمونتسكيو، و«العَقد الاجتماعي» و«إميل أو التربية» و«أصل التفاوت بين الناس» لجان جاك روسّو، و«روحُ الجماعات» و«السننُ النفسيةُ لتطور الأمم» و«فلسفة التاريخ» و«روح التربية» و«حياة الحقائق» و«الآراءُ والمعتقدات» و«روحُ الثورات والثورةُ الفرنسية» و«روح الاشتراكية» لغوستاف لوبون، و«حديقة أبيقور» و«الآلهة عِطاش» لأناتول فرانس، و«الرسائلُ الفلسفية» لفولتير. وهناك موضوعاتٌ أخرى تناولها عادل زعيتر في ترجماته مثلُ روايةِ «كنديد أو التفاؤل» لفولتير، و«الحياة والحب» لإميل لودفيغ.

محصول ضخم أنجزه عادل زعيتر، ولو امتدّ به العمر لازداد المحصول وفرةً وغنىً، لأنه كان يخطّط لترجمات أخرى، لولا أن الموت فاجأه وهو عاكف على ترجمة كتاب «مفكرو الإسلام» للبارون كارادوفو، فوضعت المنون نقطة الختام لحياةٍ خِصبةٍ عامرةٍ بالعطاء.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان عادل زعيتر يُجيدُ اللغةَ الفرنسية بفضل متابعته لدراسته العليا في الحقوق في باريس، ولا غَرْوَ إذنْ أن يكونَ احتفالُه بالمؤلفين الفرنسيين عظيماً، ولا سيما لأن اللغة تطاوعه، وهو من فنونها متضلّع متمكن. كما كان يُجيد اللغة التركية القديمة التي تعلّمها في إستنبول، ويلم إلماماً جيداً باللغة الإنكليزية التي كانت اللغة الأجنبية الأولى في فلسطين زمن الانتداب البريطاني. وإذا كان قد نَقَلَ إلى العربية كتب المؤلفين الفرنسيين من نصوصها الأصلية، فقد تعذر عليه ذلك عند ترجمة الكتب المؤلفةِ باللغةِ الألمانية ككتب إميل لودفيغ لاستعصاء هذه اللغة عليه، فاضطر إلى الترجمة عن ترجمة، مع الاستعانة بأي ترجمات أخرى بالإنكليزية أو التركية -إنْ وُجدت- للكتب التي ينشغل بترجمتها، كيما تتكاملُ لديه من هذه الترجمات المتعدّدة صورةٌ شبهُ دقيقةٍ للنصِّ الألماني البعيد عن متناوله. وهو قد عبّر عن ذلك بقوله: «إن مهمة المترجم ليست نقل العبارة الأجنبية إلى اللغة العربية، بل إن هناك ما هو أهمُّ وأعظمُ من هذا بمراحلَ كثيرةٍ، وهو أن يَنْفُذَ المترجمُ إلى روح الكاتب، وأنْ يفهمَ شخصية المؤلف تمام الفهم».

وبدافع من الأمانة تجاه القارئ، كان عادل زعيتر يحدّد في مقدمات كتبه اللغة التي نقل عنها، كقوله إنه اعتمد في نقل كتاب «النيل» على ترجمته إلى الفرنسية والإنكليزية. وهكذا، فإن عادل زعيتر لم يجعل من اللغة الألمانية سدّاً منيعاً يحول دون ترجمة الأسفارِ النفيسة، وإنما نفذ إلى تحقيق غايته من خلال اللغات الأخرى التي يحسنها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولئن عاب عليه بعض النقاد، ومنهم طه حسين، الترجمةَ عن ترجمة، فالأرجحُ أنه لولا اضطلاعُ عادل زعيتر بترجمةِ آثار الكتّاب الألمانيين عن ترجماتٍ بغير لغتهم لبقيت هذه الآثار غيرَ منقولة إلى الضاد حتّى يومنا هذا. يضاف إلى هذا أنه لو اضطلع مترجمان بنقل نفس النصّ من نفس اللغة الأجنبية، فمن المؤكّد أن الترجمتين ستجيئان مختلفتين جِدَّ الاختلاف غير متطابقتين، لأن لكل مترجم أسلوبَه الخاصَّ وذوقَه في اختيار العبارات والألفاظ. فهناك مَنْ يتمسّك بحرفية الترجمة، في حين يترجم غيرُه بالمعنى وليس باللفظ، مع ما قد يكون في هذا من تجاوز في النقل.

وأكبر ما يميّز ترجمات عادل زعيتر هو هذا الأسلوب العربي المشرق، الذي بلغَ من فرط احتفاله به استخدامه لكثير من الألفاظ القاموسية الصعبة المنال عِوضاً عن الألفاظ السهلة ذات المعاني التي تَبْدَهُ القارئ مباشرةً. وهو ما عرّضه لنقد النقّاد – ومنهم الدكتورة بنت الشاطئ -الذين ذهبوا إلى أن ترجماتِه إلى العربية تحتاج إلى ترجمة عربية بعبارات مفهومة. ولكن عادل زعيتر كان يعتقد -وهذا جزءٌ من الرسالة التي توخّاها وأخذ نفسه بها- أن عليه الارتفاعَ بمستوى القارئ عوضاً عن النزول إلى مستواه، وأن يعمل على زيادة حصيلته من المفردات اللغوية- وإنْ تكن ألفاظاً مهجورة- عِوضاً عن التقاط العبارات الدارجة التي تستخدم في الأساليب الصحفية استخداماً تساوت معه أساليبُ الكتّاب، وباتوا وكأنّهم نسخةٌ واحدةٌ متكررّةٌ، لا يتميّز أيٌّ منهم بأسلوب خاص يدل عليه ويُؤثر عنه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولابأس في هذا المقام من التمثيل على بعض الألفاظ القاموسية التي استخدمها عادل زعيتر في كتابٍ واحدٍ، هو كتاب «النيل»، هاجراً الألفاظ الأشدَّ منها وضوحاً. فهو يستخدم لفظتي «الإملاس» و«الطرفسةُ»(١) للدلالة على الظلام، ولفظةَ «اليَرَامع» بمعنى الدُّوَّامات، ولفظةَ «الخِثْي» عوضاً عن روث البهائم، ولفظة «الفحَّال» للدلالة على ذكر النخل، ولفظةَ «التِّمْراد» عوضاً عن بُرج الحمام، ولفظةَ «السِّرْجين» بدلاً من زبل الحمام، ولفظةَ «الحَثَر» بمعنى آثار الرمد في العين، ولفظةَ «المُبير» أي المهلك، ولفظة «المِسْعار» وهو ما تُشعل به النار، ولفظة «الخوادع» وهي الأبوابُ الصغيرة في الأبواب الكبيرة. ولولا أن عادل زعيتر شرح هذه الألفاظ المستعصيةَ بنفسه في هوامش الصفحات، لصار حتماً على القارئ أن يلتمس معانيها الدقيقة في المعاجم. ومع ذلك، لا أحسبُ أن إصرار عادل زعيتر على استخدام أمثال هذه الألفاظ العصيّة قد ساعد على ذيوعها وانتشارها، سواءٌ على أقلام كتّاب الصحف أو حتّى في مدوّنات الدراسات الأدبيةِ المتخصصةِ، إذْ بقيت مهجورةً معدودةً من حفريات اللغة.

وقد دافع عادل زعيتر عن هذا المنهاج في مقدمة كتاب «النيل» حيث قال: «إن من يطلع على كتب لودفيغ ومَنْ إليه من أساطين الأدب في الغرب، يَرُعْهُ ما بين الأدبيْن العربيِّ والغربي من بونٍ شاسع في الوقت الحاضر، مع ما كان من غِنَى لغة الأدب العربيّ في الزمن الغابر، ولابدّ لذلك من تطعيم لغتنا الراهنة مقداراً فمقداراً بما تحتويه معاجمنا من

[(١) جاء في القاموس والتاج: ((والطرفسانُ الظلمةُ، كالطرفساء والطرمساء)) /المجلة].

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كلماتٍ غيرِ نابية، فلعلّها تصيرُ مألوفةً. وهذا ما سرتُ عليه بعضَ السَّيْر في كثيرٍ من الأسفار التي ترجمتها، ولكن مع تفسير هذه الكلمات في هامش الصفحات تسهيلاً للمطالعة».

وقد واجهتْ عادل زعيتر في ترجماته مشكلاتٌ حاول التغلبَ عليها، مرةً باستخدام «عبارتِهِ الخاصة لا عبارة المؤلف العربي القديم» – كما اعترف بذلك في ترجمته لكتاب «ابن رشد والرُّشدية»، ومرّةً «بالبتر والحذف وإهمال بعض العبارات كيلا يُؤذَى شعور القرّاء»– كما اعترف في ترجمته لكتاب «حضارة العرب». ومع ذلك لم يسلم عادل زعيتر من المطاعن التي وُجِّهت إليه بعد سنوات طويلة من وفاته في بعض الصحف السعودية التي نعت عليه نقل أوهام المستشرقين دون الردّ عليها.

وهذا ما حدا بمحمد عبد الغني حسن، الذي قدّم لكتابي «ابن سينا» و«الغزالي» اللذين نُشرا بعد وفاة عادل زعيتر، إلى أن يدافع عن مسلك المترجم، فسجّل ما لديه من تحفظات على الآراء التي أوردها المؤلف البارون كارادوفو حيث قال في مقدمة كتاب «ابن سينا»: «على أنه قد يكون هناك من آراء كارادوفو ما لا نقرُّهُ عليه، وما لا نُطيلُ الوقوفَ أمامه... ولكنْ حسبُ هذا الكتاب أن يقرأه العرب والمسلمون في ترجمته الدقيقة وأن يعرفوا آراءَ غيرهم ليناقشوها ويدفعوها في مَعْرِض المناقشة والدفاع وأن يأخذوا أطيب ما في الكتاب من بحث ودرس ومنهج. فنحن حين نكلّف القوم غير ما في طباعهم، نتطلبُ في الماء جُذوةَ نار». وقال في تقديم كتاب «الغزالي»: «إن البارون كارادوفو تغلبه نزعةٌ ليست غريبةً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

على آذاننا ولا على أبصارنا، وهي نزعةُ فريقٍ من المستشرقين الذين لا يُخلصون لقضايا العلم. فلا يكادون يمضون في طريق البحث حتى تغلِبَهُم آراءٌ خاصة ليست علماً خالصاً ولا يُراد بها الوجهُ الصحيحُ للعلم، وإنَّما قد تحملُ بين سطورها ما يشوِّه الصورةَ الصحيحةَ للإسلام بغمزةٍ هنا ولمزةٍ هناك... وإذا لم تكن ترجمة كتاب «الغزالي» ضروريةً لما بين دفتيه من بحثٍ أصيل، فإنها ضرورية ليعرف المسلمون ما يُقال في الإسلام وما يقال فيهم». وأضاف عبد الغني قوله عن ترجمة كتاب «ابن سينا»: «ولقد كاد يكون نقصاً في المكتبة العربية أن تخلوَ منها ترجمةٌ لهذا الكتاب الذي يُعَدُّ تقديراً من مفكرٍ أوربي مسيحيٍّ لفيلسوفٍ مسلم، وتوضيحاً لفلسفته، وتحليلاً جيداً لآثاره في التفكير الإسلامي».

كما أن عادل زعيتر كان يتغلّب على ما يصادفه من صعوبات أحياناً بالتعريب كقوله في مقدمة كتاب «النيل»: «وفي الكتاب كلماتٌ قليلة عرّبناها لما رأينا من عدم وجود ما يقابلها في كتب لغتنا، كما أننا اجتنبنا النسبةَ في الكلمات المعرّبة خلافاً لما اعتمده كُتّابنا».

وتغلّب على مشكلة كتابةِ الأعلام الفرنجية، ولا سيما في كتاب «حضارات الهند» بأن ردّها إلى صورتِها المستخدمةِ من جانب الهنود أنفسهم، فاستعمل لفظة «بودَّهة» بدلاً من بوذا، ولفظة «همالية» بدلاً من هيمالايا، ولفظة «بمبي» بدلاً من بومباي، ولفظة «دهلي» بدلاً من لفظة دلهي، وهلم جرّا. بل لقد سعى في سبيل الحصول على جداول خاصة من الهند وغيرها لضبط هذه الأعلام.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعل ترجمته لكتاب «حضارات الهند» هي الترجمة الوحيدة التي اعترف فيها عادل زعيتر بالعناء في إنجازها، فقد سجّل في مقدمته قولَه: «وقضينا في سبيل ذلك كلِه أوقاتاً شديدة، ولاقينا مصاعب كثيرة يقدّرها القارئ... وإننا نطمع أن تمتاز هذه الترجمة، التي لم نتجوَّز فيها قط، بالصحةِ والوضوح والدقةِ، فلا يضيعُ فيها معنى، ولا يضطرب فيها لفظ».

وصادفت عادل زعيتر صعوبةٌ أخرى غيرُ هيّنة تتمثل في البحث عن النصوص العربية الأصلية التي نقلها المؤلفون الأجانب إلى لغتهم - ربّما بكثير من التصرف - ودون أن يشيروا إلى مصادرها. فهناك مثلاً استشهاداتٌ بأقوال لمفكرين أو باحثين عرب وردت مترجمةً في كتب مثل «ابن رشد والرُّشدية» و«الغزالي» و«ابن سينا»، وهناك كذلك أهازيجُ وأغنياتٌ شعبية وردت مترجمةً في كتاب «النيل»، والأرجح أن لودفيغ التقطها من أفواه الناس في تطوافه بحوض هذا النهر- الذي يسميه عادل زعيتر بالنهر الفحل - فاجتهد المترجمُ في البحث عن نصوصها العربية الأصلية في كتب مثل «هزّ القحوف» وغيرها، واستعان ببعض من أصدقائه مثل العلامة الدكتور جورج شحاته قنواتي والمجمعي محمد شوقي أمين، كما استعان بي في بعض الأحيان، ولم يكن يجد في هذا غضاضة حتّى وإنْ عدتُ إليه صِفْر اليديْن. فإنْ تعذّر عليه الاهتداءُ إلى النصوص المطلوبة، لم تكن هناك مندوحةٌ من الاجتهاد في ترجمتها بأسلوبه الخاص مع التنبيه على ذلك في مواضعه.

ففي مقدمة كتاب «حضارة العرب» سجَّل عادل زعيتر أن «العلامة

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لوبون» اقتطف كثيراً من كتب الحديث والأدب والعلم والفلسفة والتاريخ...إلخ من غير أن يشير إلى المصادر، فعانينا كثيراً من المصاعبِ للعثور على النصوص العربية الأصلية، فوُفِّقنا لذلك خلا القليل، فنشرنا ما انتهيْنا إليه في الأصل العربي، وأما اليسيرُ من النصوص فلم نتوصَّل إليه، فَنعتقد أنه اقتطف في الغالب من ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية في عصر النهضة وبعدَه، فضاع أصلُها العربي، فاضطررنا إلى ترجمته من الفرنسية مع وضع علامة (*) عليه في مواضعه تنبيهاً للقارئ.

ومثلُ هذا التنبيه ورد في مقدمة عادل زعيتر لكتاب «تاريخ العرب العام» حيث قال: «وفي الكتاب نصوصٌ مقتطفةٌ من الكتب العربية، فأعدنا أكثرها إلى أصلها العربي. وأما النصوص التي لم نعثر على أصلٍ عربيّ لها؛ وهي قليلة جداً، فقد ترجمناها من الأصل الفرنسي إلى العربية، فوضعنا عليها إشارة (*) تنبيهاً للقارئ، كما وضعنا علامة استفهام على بضعة الأسماء التي لم نجد لها أصلاً في الكتب العربية لشدّةِ تحريف رسمها في الأصل الفرنسي».

كما قال محمد عبد الغني حسن في تقديمه لكتاب «ابن سينا» الذي نُشر بعد وفاة عادل زعيتر: «وكل ما في هذه الترجمة من نصوصٍ عربيةٍ مردودٌ إلى أصله، إلاّ في ثلاثة مواضع اكتفى فيها المترجم –رحمه الله– بالترجمة عن الفرنسية مع الإشارة إليها بهذه السمة (*) تنبيهاً عليها».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصفوة القول: إن عادل زعيتر كان ينشدُ الأمانةَ الكاملةَ في النقل، فلا يحيد عنها إلاّ مضطراً، سواءٌ لمراعاةِ المشاعرِ العربية العامة التي قد تتأذى من عبارةٍ بعينها، أو لأن في النص الفرنجي اضطراباً يمكن الالتفاتُ عنه كما هو الشأن في جميع كتب إميل لودفيغ التي لاحظ فيها عادل زعيتر «غموضاً والتباساً في الفكر والتعبير».

وقد قلت عن عادل زعيتر في مقال منشور: «إن الرجل الذي يترجم لوبون ولودفيغ وروسو ومونتسكيو لا يمكن إلاّ أن يكون صنواً لهؤلاء جميعاً، يُحاكيهم في المعرفة ومحيط الفكر، ويَفْضُلُهُم في إتقانِ فنٍ لا يحسنونه هو الترجمة، ويتفوق عليهم بتبحّره في لغات متعددة كلها كالمحيط في انبساط أرجائه». ولا أظنني كنت مغالياً في هذا القول.

وفي تصوّري أن الخطّة التي كان عادل زعيتر يتّبعها في عمله تبدأ بالقراءة المستوعبة للآثار الفرنجية ذات القيمة الباقية كيما ينتقي الكتب التي ينبري لترجمتها. وهو قد يقرأ الكتاب مرّةً ومرتيْن للإحاطة بمادته إحاطةً وافيةً قبل أن يدرجه في برنامجه الموضوع لترجمة الآثار الفرنجية، إذْ كان يعمل بناءً على خطة موضوعةٍ سلفاً وبتوقيتٍ محدّد فرضته عليه رحلتهُ الشتويةُ السنويةُ إلى القاهرة لطبع كتبه إمّا في دار المعارف وإمّا في مطبعة عيسى البابي الحلبي. وكان يَعدُّ هذه القراءةَ الأوليةَ ضروريةً لأنها تُعينه على تكوين نظرةٍ كليّةٍ شاملةٍ عن الكتاب يتحقّقُ بفضلها الترابطُ والتناسقُ بين فصوله، فلا يتنافر أوله مع آخره، بل يتجانسُ الأسلوبُ والمصطلحاتُ في جميع أقسام الكتاب. فإذا قرّر أن يترجم كتاباً ما، حدّد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له الوقت المطلوب، وتوافر عليه توافراً تاماً، متفرِّغاً لهذا العمل يوماً بعد يوم دون كلال أو ملل، مُخلياً نفسَه من جميع الارتباطات الأخرى التي تشغله عن عمله في منسكه الخاص المغلق عليه. ولا تشاركه في خلوته إلاّ المعاجمُ وجمهرةٌ كبيرة من كتب المراجع التي لا محيص عن الاستعانة بها من جانب المترجمين.

ولا أعرف على وجه التحديد هل كان عادل زعيتر يعدّ مسوّدةً ثم يتعهدها بالتبييض، أو أن البديهة الحاضرة والخبرةَ الطويلةَ والكفاءةَ المعترفَ بها أغنته عن التسويد ثم التبييض. ومع أنني اقتربت من عادل زعيتر كثيراً، ولقيته مراراً في كل زيارة سنوية إلى القاهرة، واستوضحته في أمور غير قليلة، فلم أوجّه إليه سؤالاً بشأن هذه النقطة. والأرجح أنه كان يُراجع الترجمة بعد إنجازها، ويُدخل عليها من التنقيحات ما يستصوبُهُ قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. كما أن الترجمة لا تسلم، حتّى عند مراجعة تجاربها في المطبعة بنفسه، من التحسينات التي يُصرّ على إدخالها على الرغم من تضرّر عمال المطبعة من ذلك.

وكان يقول لي إنني بهذه الترجمات أتحدّى غيري من المترجمين والنَّقَلة أن يأتوا بما هو أصحُّ منها أو أمتن سبكاً أو أبلغُ عبارةً أو أن يأتوا حتّى بمثلها. ومُرادي هو أن يجيءَ النصُّ العربيُّ محاكياً للنص الفرنجي. وهو ما عبّر عنه في تقديمه لكتاب «النيل» حيث قال: «لقد بذلنا جهداً كبيراً في تذليل ذلك (الأمر) لشوكةِ اللغة العربية مع حرفية النقل، وجعلِ أسلوب الترجمة مساوياً للأسلوب الأصلي جهدَ المستطيع».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن آيات تحدّيه أنه قام بترجمة كتاب «السُّنن النفسية لتطوّر الأمم» لغوستاف لوبون الذي سبق إلى ترجمته أحمد فتحي زغلول باشا (شقيق الزعيم سعد زغلول باشا) بعنوان «سرّ تطور الأمم» وذلك لأن ترجمة زغلول باشا «لم تخلُ من التجوّز والعُجمة والغموض- وإنْ بذل المترجم جهداً مشكوراً في المحافظة على المعاني». على أن عادل زعيتر التمس لزغلول باشا الأعذار - متوخياً في ذلك منهاج العالم الأمين- حيث قال: «إن الموضوعات الاجتماعية التي وردت في الكتاب كانت في ذلك الحين غيرَ مطروقةٍ كثيراً كما هي الآن، ولهذا تعثّر المترجمُ في نقلها». واستطرد زعيتر بقوله: «ولنفاد ما طبعه زغلول باشا من نسخ ترجمته، ولما وجدتُ من ضرورة ترجمة كتاب «السنن النفسية لتطور الأمم» ترجمةً تتساوق هي وما ترجمتُه من كتب لوبون في السنين الأخيرة على الخصوص معتمداً على النص الفرنسي ومعوِّلاً عليه، نقلتُ هذا الكتاب النفيسَ على الوجه الذي أعرضه به على القرّاء». فهو من ناحيةٍ نعى على زغلول باشا قصورَه في الترجمة، ومن ناحيةٍ أخرى طمأن القراء على أن ترجمته هي الواضحةُ الصحيحة التي يُعوَّل عليها.

ولقد سئل عادل زعيتر غير مرّة: لِمَ لا تؤلّف عوضاً عن أن تترجم؟ فأنت تملك جميع أدوات البحث والدرس والاستقصاء، ثم إنك في التأليف تُعفي نفسك من جريرةِ الآراء التي يذهب إليها المؤلفون الأجانب، ولا سيما حين يتصدَّوْنَ لتاريخ العرب أو عقائدهم أو فلسفاتهم أو حضارتهم؟ وكان عادل زعيتر يقول: -وبروحٍ من التواضع- لو كنتُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أجيد التأليف بمثل ما أجاده هؤلاء المؤلفون الغربيون، لآثرت طريق التأليف. فالعبرة بالمادة النفيسة سواء أكانت مترجمةً أم مؤلّفة. ثم إن الترجمة لا تقلّ إبداعاً عن التأليف، فهي عمل تحتشد له القريحة والموهبةُ والدرايةُ الموسوعيةُ، ومن الخطأ النظرُ إلى الترجمةِ باعتبارِها عملاً آلياً يُقدم عليه كل من عرف لغتين.

ويؤكّد عادل زعيتر في معظم ترجماته بأنها ترجمةٌ حرفيةٌ، إلاّ في حالات قليلة أشار فيها إلى أنه تجوّز تجوّزاً يسيراً في النقل لاعتبارات ارتآها وفرضت نفسها عليه فرضاً. وقد عَنَّ لي أن أقوم بمضاهاةِ بعضِ الفصول من ترجمة عادل زعيتر لكتاب «النيل» مع الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب عينه التي أعدّتها ماري لندزاي Mary H.Lindsay، وهي قطعاً مقارنةٌ ظالمةٌ، لأن عادل زعيتر نقل عن الفرنسية، في حين نقلت ماري لندزاي عن الألمانية. ولا مناص من وقوعِ تفاوتٍ في النقل بين النصين المترجمين، فألفيتُ أن عادل زعيتر يتصرّف في الترجمة تأخيراً وتقديماً، ويضيف من عنديّاته عباراتٍ وصفيةً أو شاعريةً تزيد الأسلوب حُسناً، كقوله عن النيل إنه «مباركُ الغدوات ميمونُ الرَّوْحَات» أو قوله عن مصر «فبينما مصرُ لؤلؤةٌ بيضاء، فإذا هي عنبرةٌ سوداء، فإذا هي زمرّدةٌ خضراء، فإذا هي ديباجةٌ رقشاء»، وهي محسّناتٌ لفظية تضيف إلى الترجمة بُعداً شاعرياً جمالياً وتجعلها قطعة من الأدب المصفّى.

والنصوص التي ترجمها عادل زعيتر تحتمل مثل هذا التصرّف المقبول، لأنها ليست من قبيل العقودِ القانونيةِ التي تقيّد المترجم بالحرفية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الباغية، ولا هي من شاكلةِ الاتفاقيات التي تبرم بين الدول والتي تُصاغ بعباراتٍ اصطلاحية ليس منها فكاك. فالمترجم الأدبيّ، كعادل زعيتر، يحتشد للترجمة بكل حصيلته الأدبية واللغوية والبلاغية، وليس عليه لوم أو تثريب إذا ما حوّل النصَّ الجافَّ المنقول من مادةٍ تاريخيةٍ أو جغرافيةٍ ثقيلةٍ إلى أثر أدبي رفيع يحكي كتاباتِ بُلغاءِ العرب. والمهم ألا يجور اللفظُ الإنشائيُّ على المعنى الدقيق، وأن تكون أمانةُ النقل هي ديدنُ الناقل في إنجاز عمله، ولا سيما لأن قارئ الترجمة باللغة العربية قد يقنع بها، إمّا لجهله اللغة الأجنبية المنقول عنها، أو لأن النصّ الفرنجي ليس في متناوله. فالترجمةُ بالنسبة للقارئ العربي هي إذن السبيلُ، وربما الوحيد إلى معرفة آراء المؤلف، أو إلى الاستشهاد بها اطمئناناً من القارئ إلى أن المترجم قد توخّى الأمانة الكاملة في النقل.

والذي يعمل بالترجمة لابدّ أن يتحلّى بما يمكن أن يُطلق عليه اسمُ «ضمير المترجم»، وهو الذي يجعله يبذل أقصى الجهد حتى لا يقع في ما يطلق عليه الإيطاليون عبارةَ «الترجمة خيانة». فالمترجم الأصيل ذو الرسالة كعادل زعيتر لا يخون القارئ الذي وثق به، ولا يخون النصّ الذي ينقل عنه، وإنّما يؤدي رسالته بأقصى قدرٍ من الأمانة ويقظة الضمير. وإذا كان هناك ناشرون لا يطمئنون إلى ترجمة نصٍ إلاّ بعد عرضه على مراجعٍ يسجَّلُ اسمه على غلاف الكتاب، فإن عادل زعيتر قد حمل عن نفسه عبء المراجعة وخرج إلى القارئ متحمّلاً بمفرده المسؤولية الكاملة عن عمله. بل لقد قال لي مرةً إن عبارة «مراجعة فلان» التي يُقصدُ بها طمأنةُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القارئ على دقّةِ الترجمة وصحّتِها إنما تلقى بظلالٍ كثيفةٍ من الشك على أهلية المترجم نفسِه، لأنها تعني أن عمله منقوص ولابدّ من استكماله بالمراجعة. ومَنْ يدري، فقد تحتاج هذه المراجعة إلى مراجعةٍ تالية للتثبتِ من أن المراجع لم يُفلتْ منه شيء.

وللمرء أن يسأل عن مكوّنات المترجم الكفء، وكيف استطاع عادل زعيتر أن يبلغ الشأوَ الذي بلغه في الترجمة، وهو أصلاً من رجال القانون، وصناعتُه المحاماةُ وتدريسُ الحقوق على المستوى الجامعي؟ وفي الردّ على هذا التساؤل نقول: إن الترجمة- حتّى وإن دُرست في معاهد متخصصة- لا تُسْلَس قيادَها للمترجم إلاّ إذا استكمل أدواته، وهي تتحصّل في الموهبة أولاً، ثم في رحابة الثقافة ثانياً، ثم في إتقان اللغات التي يشتغل بها ثالثاً، ثم في الممارسة العملية الدؤوبة مع الانتفاع بملاحظات النقّاد رابعاً، ثم في الاستمساك بمبدأ «ضمير المترجم» الذي يُلزِمُهُ الأمانة في العمل، والصرامةَ الجادة في أدائه خامساً، ثم في معرفته بفنون البلاغةِ الأسلوبيةِ التي تكفل للمترجم مستوى رفيعاً من حيث نصاعة اللغة سادساً، يضاف إلى هذا جميعه قدرةُ المترجم على سكِّ المصطلحاتِ بعبارةٍ سائغةٍ كلّما اعترضه شيء منها. وأشهد أن عادل زعيتر قد دانت له جميعُ هذه العناصر، فهانت عليه مُهمَّتُهُ على الرغم من صعوبتها، واستطاع بين عامي ١٩٢٤ و١٩٥٧ أن يترجم نحو أربعين كتاباً من أضخم الكتب حجماً وأغزرها مادةً، وما كان هذا ليتأتّى له لولا أنه ألزم نفسه بصرامةٍ منهجيةٍ، وتفرّغ لعمله الذي كان ينفق عليه أكثر مما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان يكسبُ منه، تاركاً المحاماة -وهي عمل ربيح. كنتُ أراه يُقيم في فندق شبرد الشهير -قبل احتراقه- شهراً بعد شهر للإشراف على طبع كتبه، فأسأله: وهل تعوضك كتبك عن النفقات التي يتقاضاك الفندقُ إياها؟ فكان يقول: ومنذ متى كان المال رائدي وقائدي في الحياة؟ حسبي أن أخدمَ أمّتي بما أنقلُهُ من نفائسِ المدوّنات، وهذا هو الجزاءُ الأوفى للعمل الذي أضطلع به.

والأخطاءُ المطبعية هي آفةٌ فاشيةٌ قلّ أن يسلم منها كتابٌ عربيّ. ولكن عادل زعيتر كان ينبري بنفسه لمراجعة تجارب كتبه مرتين وثلاثاً اجتناباً للخطأ الذي كان يعدُّه جنايةً لا تُغتفر. شهدتُ مرّةً نقاشاً حاداً جرى بينه وبين شفيق متري صاحب دار المعارف. فقد اكتشف عادل زعيتر بعد طبع ملازمِ كتابِ «البحر المتوسط» -وهو في ٩٠٠ صفحة- أن هناك اثنتي عشرة غلطةً مطبعيةً أفلتت من المراجعات المتكررة، فأصرّ على إثبات لائحة بهذه الأخطاء في نهاية الكتاب. ولكن شفيق متري أصرّ بدوره على عدم إثبات هذه اللائحة قائلاً إن فيها ما يسيء إلى سمعة دار المعارف التي اشتُهرت بالدقةِ المطلقة في جميع كتبها. ولكن عادل زعيتر لم يقنع بهذه الحجة وأكّد أن تصحيح الخطأ المطبعي هو مسؤوليةٌ يتحمّلُها أمام القراء. وارتضى الطرفان بعد أخذٍ وردٍ طويلين أن تُنشر لائحة التصويبات مصدّرةً بعبارة تقول إن أغاليطَ قليلةً ظهرت في هذا الكتاب الضخم الذي طُبع بإشراف عادل زعيتر نفسه في خمسة أسابيع، والذي أبدى اعتذاره لدار المعارف وسجّل لها شكره: فتحمّل بذلك وِزْرَ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأخطاءِ المطبعيةِ وأعفى الناشرَ من تبعاتِها.

وصفوةُ القول: إنَّ عادل زعيتر يمثّل ظاهرةً فريدةً في حركة الترجمة المعاصرة، وإنَّ أي تقييم مُنصف لدوره في الترجمة لابدّ أن ينوّلَهُ أعلى مراتبها، فهو في هذا الميدان قد انتبذ لنفسه مكاناً سامقاً يكادُ يتأبّى على المقارنة مع غيره من المترجمين. ولا غرو، فقد كان -كما قلتُ في بداية هذا الحديث- مترجماً ذا رسالة(*).

(*) لعادل زعيتر (١٨٩٧- ١٩٥٧) حياة خصبة قضاها في الجهاد الوطني والتعليم والمحاماة ثم تفرّغ للتأليف والترجمة. واختير عضواً مراسلاً في مجمع دمشق في عام ١٩٥٥ وسبق المجمع العلمي العراقي إلى اختياره عضواً في عام ١٩٥٣ (راجع سيرة حياته في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عدد كانون الثاني ١٩٥٨ ص١٦٥ - ١٦٦).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net